قراءة في "البعد المستتر" *

ادوارد هال

مراجعة : د. حسن قبيسي

لم يستوعب الأعرابي عندما ساقته الظروف الى عرس في الحاضرة كيف ينعجق كل هؤلاء القوم تكريماً للعروس. إذ كان لسان حاله يحدثه بالقول: «رُبَّ عروس عندنا في البادية أهون على أهله من قُلامة»، أو ما يعادلها. والدهشة التي تملّكته حيال مرآى تلك الرّفاق التي حسبها نسيجاً، أو سماع ما كان يخرج من تلك «الهنة السوداء» لم تكن تقل عن دهشة يافعين من جيلنا حين قرأوا للمرة الأولى «أعرابيٌّ في عرس».

ثم كان موقفهم من حكاية اسماعيل «اللي زيّ البمب» حين أحب أن «يعمل ود فكاكة»، أشبه بالمتتبع لمسرحية ـ ملهاة، يضفي عليها صوت الشيخ إمام بعض الرومانسية الشجيّة. أما النظر في أمر هذه «المهالك» التي أدت اليها بالضرورة رغبة اسماعيل بأن «يمشي حبّة في الزمالك»، فلم يكن يُيَمّم سوى شطر الصراع الطبقي والتفاوت بين عباد الله الواحد. كان «كلب الستّ»، ولا مؤاخذة، أحدّ حِسّاً من كثيرين حين لم تنطل عليه فكاكة اسماعيل إذ «ألوَظ بجامتو»، فظل الحيوان العريق حساسا لفروقات ثقافية ليس أقلّها أن التمشي في الزمالك لا يكون بالبجامة، وإن تكن «مُؤْلوظَة».

إلى الدهشة والدراما، كانت حياتنا اليومية تحفل، ولا يزال احتفالها يتفاقم، بأحداث مأساوية، وإن تكن تنتمي الى صنف بعينه دون ان تحظى، كغيرها، بنعمة التصنيف. فالحج محمد عليّان الذي تتحدث عنه مسرحية «أيام الخيام» رجل فعلي كان قد عاش طفولته وشبابه وكهولته في قريته، قبل أن تقذفه الظروف الى ضاحية العاصمة، وكان انتحاره أمراً فعلياً، لا مسرحياً فقط، نتيجة إحساسه بأن «البنايات عم تضرب براسي» كما كان يقول قبل انتحاره.

ما كان ـ ولا يزال ـ بالنسبة لنا موضوعاً للدهشة والدراما والمأساة، صار منذ وقت طويل موضوعاً لفروع معرفية وعلمية شتى. والإتيان على سيرة المعرفة والعلم ليس، بالضرورة، من باب الولع بهما، ولا من قبيل التنكر لعوامل الدهشة والدراما، بل ربما كان لأن هذه الهنات تفعل فعلها في بعض الأحيان لتخفّف عن المرء

* Edward T.Hall, «La dimension Cachée», Seuil, 1971.

بعض أعباء مآسيه وتساعده حيث يُغمى عليه في أيام محنته.

يذكر لويس ممفورد في تأريخه للمدينة[1] ان شريعة حمورابي كانت قد وُضعت بناء على الحاجة الى مكافحة الفوضى التي نجمت عن تدفق البشر على حواضر ما بين النهرين. ويستطيع المتتبع لمسائل هذا التدفق أن يرى بيُسر كيف أن المتدفقين يكونون عادة مختلفي المشارب والانتماءات الثقافية، إذ يأتون للحاضرة من كل حدب وصوب كما يقال. يكفي في ذلك ان نقرأ بضع صفحات من خطط المقريزي حول نشأة مدينة كالقاهرة حيث نجد أنفسنا حيال ما يشبه أن يكون مجمعاً من شعوب وقبائل شتّى: روم، يهود، أتراك، بربر، ديلم، شركس، بالاضافة الى الأقباط والعرب، بالطبع[2]. منذ أيام حمورابي إذن، وربما قبلها - إذ يذهب الباحثون الى أن تاريخ نشأة المدن يعود الى زهاء الخمسة آلاف عام - ما فتىء تاريخ علاقات البشر بالمدينة يشهد، كما يقول ادوارد هال، «على ضرورة الاستعاضة عن العادات والتقاليد القبلية، بمنظومة من القوانين الوضعية» (204)[3]. ومنذ ذلك الحين، وربما من قبل، ما فتئت تنشأ، حيث نشأت المدينة،هيئات ومؤسسات تتولى مهمة البلورة الدائمة لتلك القوانين التي اتخذت تسمية القوانين المدنية، نسبة الى المدينة كما هو معلوم، قبل أن يوكل البشر - ربما إزاء صعوبة المهمة - أمر هذه القوانين الى الأديان ويتكلوا فيها على الآلهة.

يستطيع قارىء كتاب ادوارد هال أن يجد فيه، حسب الهوى، أكثر من موضوع للاهتمام. إذ يبدو أن هذا الكاتب كان قد طوّح في الآفاق أزماناً، كما يقول شاعرنا، قبل أن يستقرّ به الأمر على معالجة البعد الثقافي في حياة البشر الذي يصفه بالبعد المستتر. فهذا المنجم العجيب، على ضآلة حجمه، يزخر بموضوعات معظمها جديد على ثقافتنا العربية رغم ان تاريخ كتابته يعود إلى أواسط الستينات، وأن ترجمته الى الفرنسية تعود الى أوائل السبعينات. غير أنه لا مجال للمماراة حول بيت القصيد: الانكباب على مشكلة المدينة، على المشكلة المزمنة بزمانة اضطرار البشر إلى العيش في المدن.

يأتي هال الى عالم المدينة ومشكلاتها من عالمين قد يبدوان غريبين عنها: عالم الرموز والاشارات والدواليل وما تتخذه السيمياء موضوعاً لها. وعالم الحيوان وما أجري عليه من تجارب لسبر أغوار البعد الحيواني لدى الإنسان. يأتي من الأول بوصفه أنّاساً، ومن الثاني بوصفه باحثاً اختبارياً حول السلوك الحيواني. ويندرج كتابه الذي نحن بصدده ضمن تيار فكري كان قد أتمّ خروجه على فكر «المحورية الغربية» منذ ان شرع بعض المفكرين ينتبهون من خلال أبحاثهم إلى أن معايير الفكر الأوروبي، والغربي بشكل عام، لا يصحّ تعميمها على سائر البشر. كانت الأبحاث اللغوية هي السبّاقة الى تبيان قصور ما كان سائداً لدى علماء اللغة الأوروبيين، إذ كانوا يعتبرون اللغات الهندوروبية بمثابة النموذج لجميع اللغات ومعياراً يصح أن يستعار به ويُبنى على قياسه ومنطقه. هكذا كان بوسع بعض الأنّاسين المبتدئين ان يعتبر لغة قوم من الأقوام قاصرة عن التعبير «أو أن المفردات والبنى النحوية المقتضبة لديهم لا تسمح لهم بالتعبير إلا عن افكار في غاية البساطة»، أو ان قوماً آخرين «يضطرون الى القيام بالكثير من التشنّجات العضلية والتثويرات الحركية حتى يُفهم عليهم ما يقولون» أو أن غيرهم «يضطرون، تعويضاً عن نواقص لغتهم، الى القيام بإشارات شتى بحيث لا يمكن فهمهم في

1 - لويس ممفورد، «المدينة عبر التاريخ»، باريس، سوي، 1964
— Lewis Mumford, «La cité dans l'histoire», Paris, Seuil, 1964.

2 - «خطط المقريزي»، دار صادر، بيروت، الجزء الثاني.

3 - رقم الصفحات يشير دائماً الى كتاب هال المذكور.

العتمة»[4]. لكن الإناسة في طور شبابها ما لبثت ان أنتجت باحثين (يذكر منهم هال: بواس، سابير، بلومفيلد) ممن عكفوا على دراسة لغات يختلف بعضها عن بعض اختلافاً جذرياً، كاختلاف لغة هنود أمريكا عن لغة الأسكيمو. فتبين لهم ان كل عائلة لغوية تنطوي على قواعدها المعقدة الخاصة وتشكل سستاماً مغلقاً ينبغي على اللغويين أن يكتشفوا كنه بناه قبل أن يطلقوا أحكامهم حول إطلاقية اللغات الهندوروبية أو نسبيتها.

كانت الأبحاث اللغوية جسراً يمر عليه الباحثون أنفسهم (بواس، مثلاً) إلى أبحاث أخرى ما لبثت ان استقلّت من حيث موضوعها ومنهجيتها وكوّنت ما سمي بعد ذلك بعلمي الدِلالة والسيمياء[5]. هكذا يعتبر ادوارد هال أن فرانس بواس كان قد سبقه «منذ خمسين عاماً (13) للبحث في هذا الموضوع «الذي يقوم على اعتبار التواصل بين البشر (بمختلف أشكاله) أساساً للثقافة، بل أساساً للحياة نفسها» (13). وبعد أن كانت اللغة تعتبر الشكل الرئيسي بلا منازع من أشكال التواصل هذه، أخذ الباحثون يهتمون بأشكال أخرى صارت تشكل موضوعاً لعلم قائم بذاته: السيميوتيك أو السيميولوجي التي اصطلحنا على ترجمتها بالسيمياء.

من بين هذه العناصر السيميائية ثمة عنصر لم يحظ باهتمام الباحثين إلا منذ فترة وجيزة. إنه ذلك العنصر المسمّى بلغة الغرب Espace (والذي نصطلح على ترجمته بالمجال). وصار النوع المعرفي الذي يتخذ المجال موضوعاً للدراسة، بوصفه عنصراً من عناصر التواصل بين البشر، مكرّساً تحت اسم المجالية، Proxémique، وهي جزء من السيمياء تدرس كيفية استخدام المجال من قبل الكائنات الحيّة وخاصة منها الانسان. «إن الموضوع المركزي لهذا الكتاب هو المجال، المجتمعي والشخصي. وتصوّره من قبل الانسان. وتعبير الـproxémie تعبير جديد ابتدعته لأشير به الى مجمل المشاهدات والنظريات التي تتعلق باستخدام الانسان **للمجال بوصفه نتاجاً ثقافياً مخصوصاً**» (13). إذا كان المجال وتعامل الانسان معه نتاجاً ثقافياً مخصوصاً، فهو من ثمّ عنصر من العناصر التي تحكم علاقات الجماعات الثقافية المختلفة في ذلك الحيّز الذي يلعب فيه المجال دوراً كبيراً إن لم يكن أساسياً، ونعني به المدينة. لذا ينبّه المؤلف منذ بداية كتابه إلى «أن الفئات الإثنية (العرقية) الشديدة التنوّع التي تكوّن المجتمع الأمريكي، قد برهنت عن ثبات عجيب من حيث احتفاظها بخصائصها المميزة.. وإذا كانت هذه الجماعات تبدو للوهلة الأولى متشابهة إذ تتكلم اللغة نفسها تقريباً، فإن التحليل المعمّق يكشف لديها عن فروقات ضمنية لا تظهر للعيان من حيث ابتنائها للزمان والمكان والأشياء والعلاقات البشرية. إن هذه الفروقات هي التي كثيراً ما تكون في أصل الفهم المغلوط الذي يعتور العلاقات الثقافية المتبادلة، رغم وجود النوايا الحسنة لدى الجميع.. إن الأبحاث التي قمت بها حول **الطريقة التي يستخدم الانسان بموجبها مجاله ـ وأعني المجال الذي يقيمه بينه وبين الآخرين، فضلاً عن المجال الذي يبنيه حول نفسه، في مسكنه أو في مكتبه ـ من شأنها ان تلفت الانتباه الى عمليات لم تجرِ العادة بنا على استنطاقها والتساؤل حولها**» (9).

لا يقتصر الكتاب على البعد الثقافي وحده. فإذا صحّ ان السساتيم الثقافية تؤثر في بنية السلوك تأثيراً كبيراً، فالذي لا يقلّ صحة هو أنها متجذرة في الكيان الحياوي (البيولوجي) والجسماني (الفيزيولوجي) لدى الانسان. لقد أوجد الانسان لنفسه «امتدادات» مكنته من تحسين وتخصيص عدد من الوظائف: «الناظمة الآلية امتداد لجزء من الدماغ، والهاتف امتداد للصوت، والعجلات امتداد للرجلين والساقين، واللغة امتداد للتجربة عبر الزمان والمكان...». لكن الانسان أوصل امتداداته هذه الى مستوى من التبلور «بحيث كدنا ننسى ان إنسانيته

4 ـ ايفانز برتشارد، «ديانة البدائيين في نظريات الأنّاسين»، دار الحداثة، بيروت، 1986، ص278-279.

5 ـ Semiologie, Semantique

متجذرة في طبيعته الحيوانية» (16). إذا صحّ ذلك، يقول المؤلف، فإن معاينة وتحليل السساتيم المجالية الخاصة بالثقافات الحديثة عليها أن تأخذ بالاعتبار سساتيم السلوك والتصرفات التي تستند إليها والتي «تتمثل بأشكال الحياة البدائية التي انبثقت عنها». لذا يعمد المؤلف في الفصلين الثاني والثالث الى استقاء الدروس من أبحاث تجريبية وتنظيرية لسلوك الحيوان وتصرفه من حيث علاقته بالمجال[6]. إن الأبحاث المذكورة تتبّع عن كثب عدداً من الإنجازات التي تحققت مؤخراً في ميدان «الأثولوجيا»، (التي لا نعلم حتى الآن كيف يمكن التعبير عنها بالعربية) وهي فرع معرفي يدرس السلوك الحيواني بشكل خاص، وعلاقات الكائنات الحية بشكل عام، من حيث صلتها بمحيطها الطبيعي. في ضوء هذه الدراسات يبدو أن الانسان بوصفه كائنا عضويا قد رفع امتداداته الى حيّز عال من التخصص والتنوّع بحيث انها بدأت تحل محل الطبيعة، وبحيث إن الانسان أصبح قادراً على أن يبني مجمل المحيط الذي يعيش فيه من ألفه الى يائه، وإن دور البعد الطبيعي آخذ بالتضاؤل الى حدّ التلاشي. لكن الانسان إذ يبني محيطه على هذا النحو يحدد في الوقت نفسه معالم الكائن العضوي كما سيكون عليه في المستقبل. وهذا ما يعتبره المؤلف «منظوراً مقلقاً» وأفقاً قاتماً في ضوء معرفته بالوضع البائس الذي يطغى على المدينة. لذا فإن «هذه الشبكة المعقدة من العلاقات المتبادلة بين الانسان ومحيطه تجعل من مشكلة التجديد المدني ومن مشكلة اندماج الأقليات ضمن الثقافة المهيمنة مشكلة أعوص وأحدّ بكثير مما يُعتقد عادة. كما أن جهلنا او تجاهلنا لمسألة علاقة الشعوب مع وسطها الحياوي biotope يؤثر في عملية التنمية التقنية للبلدان المسمّاة بالمتخلفة» (17). ويطرح المؤلف بالتالي سؤالاً: «ما الذي يحصل عندما يلتقي أفراد (أو جماعات) ينتمون الى ثقافات مختلفة ويدخلون في علاقات بعضهم من بعض»؟

والسؤال مطروح بالطبع من زاوية علاقتهم الثقافية بطبيعية المجال الذي سيتحكم في وضعهم بالمدن. هكذا لا يعود الاهتمام بتفاصيل البعد الثقافي عامة، والبعد المجالي خاصة (دراسة الحد الأدنى للمجال الحيوي عند الحيوان والانسان، رصد ردود الفعل لدى الحيوانات والبشر عندما يتجاوز ازدحامهم السكني حدّاً معيناً، درس مسألة العدوانية في ضوء ردود الفعل هذه، قياس المسافات التي تعتمدها أنماط ثقافية معينة في أشكال محددة من العلاقات البشرية: ارتفاع صوت المحدث أو انخفاضه، مدى اقترابه من محدّثه أو ابتعاده، كيفية النظر والتفرّس في الوجه، دور الحواس لدى ثقافات مختلفة في تلقي أو إهمال معطيات حسية...) لا يعود ذلك من باب التقعّر الذي قد تجد له الأقلام المنمّطة نعوتاً تلصقها به من نوع: الترف الفكري أو صرف الأمور عن مسارها النضالي او الانزلاق مع طروحات الفكر البرجوازي[7]، بل يصبح ذلك من باب جمع العناصر التي تمكّن الباحث من معالجة مشكلة عملية تعتبر مفاعيلها «أشدّ خطراً من مفاعيل القنبلة الهيدروجينية» (202) أو تهدد في حال تفاقمها بجرّ المجتمع (الأمريكي هنا) بأسره «الى الهاوية» (18).

إذا كان هال يشكو من مدن تحاصرها بيوت التنك والصفيح، وتحفل بمستشفيات للمعالجة العقلية، وبسجون وسيارات وبنايات تضيّق الخناق على البشر وتنذر بولادة إنسان مختلف غير معروف المعالم، فماذا نقول عن مدننا؟ وإذا كان ينحو باللائمة على مجتمع لم يحترم المجال الحيوي اللازم لإنسانية البشر منعاً لطغيان غرائزهم، فكيف نراعي اليوم هذا المجال في تخطيطنا لمدننا؟ قد يختلف المحللون حول رصد الأسباب البعيدة لما حصل في طهران، أو لتنامي التيارات الأصولية في القاهرة، أو أيضاً لما لا يزال يعصف ببيروت. لكن المحللين مقصّرون ولا شك في البحث عن طبيعة «نموّ»

6 ـ أنظر في مكان لاحق من هذا العدد ترجمة الفصل الثالث وعنوانه: «السلوك المجتمعي وازدحام السكن عند الحيوانات».
7 ـ انظر مثلاً تعليق المحرر الثقافي في جريدة النداء البيروتية على العدد 42 من مجلة الفكر العربي.

هذه المدن خلال القرن. ما دور التنظيم المدني الذي اعتمدته الرسملة البرّية في توسع طهران وفي تدفق الفلاحين عليها بعد فشل «الثورة الخضراء» في الريف الايراني؟ لماذا كان الأصوليون المصريون يتخذون من «مقابر» القاهرة «مساكن» لهم؟ لماذا كان تدمير بيروت وطرابلس (اللبنانية) يتم على أيدي فئات حديثة العهد بالحياة المدنية ولم تستكمل تكيفها مع شروطها؟ إن هذه الأسئلة تجعلنا نقرأ هال وأمثاله بذهنية منفتحة عندما يقول: «بمقدار ما يتسنى لنا ان نطبق على البشر ما جمعناه من معلومات عن الحيوانات المكدّسة في مجالات ضيّقة أو المحشورة بأعداد كثيفة في أماكن محدودة. أو المنقولة الى بيئات غريبة عنها. نستطيع أن نفهم المفاعيل التي يؤدي اليها تراكم البشر وتكدّسهم في المدن» (202). إن مشكلة تكيف هؤلاء البشر المتراكمين في المدن لا تطرح فقط من الناحية الاقتصادية. بل من ناحية أسلوب معيشة بكامله، أي من ناحية البعد الثقافي (المستتر). بالطبع لا يتحدث هال عن مدننا ولا عن مجتمعنا وإن كان يكتب صفحات طويلة عن بعض خصائصه الثقافية (189-201). فهو يتحدث عن جماعات ثقافية تعيش في المدن الأمريكية: سود، بورتوريكيون، هنود... وهو يرى ان هذه الكتل البشرية تواجه صعوبات تطرح عليها من جانب المجالات المعادية لطبيعتها، ومن جانب الظاهرات المرضيّة المتصلة بسلسلة من السلوكات التي لم تتكيف معها، ومن جانب أنظمة المواصلات والاتصال التي لا عهد لها بها. «إن هذه الفئات الاقليّة تتميز عن المجتمع المهيمن بفروقات ثقافية جذرية تتعلق بمفاهيم وقيم أساسية، من نوع بنية المكان والزمان والمادة والتعامل معها، وهي مفاهيم وقيم مكتسبة منذ سنوات الحياة الأولى» (203). ولا تزول سريعاً، (يتحدث هربارت غانز عن ان عملية التكيف مع الشروط المدنية تستغرق ثلاثة أجيال على الأقل) و«إن بعض الخطباء السود قد ذهبوا الى حد التأكيد على ان ليس هناك رجل ابيض يستطيع فهمهم»، فيعلّق المؤلف: «وربما كان الحق بجانبهم إذا كان الأمر يتعلق بثقافة السود من أبناء الطبقات الدنيا. غير أن الناس لا يفقهون أن الفروقات الثقافية، كتلك التي يعاني منها السود، مفعمة ولا شك بالأحكام المسبقة. لكن هذه الأحكام لا شأن لها بطبيعة الحكم المسبق [كما يُفهم في المنطق]. إنها كامنة في صلب الشرط البشري وقديمة قدم الانسان نفسه»[8] (207).

* * *

يلتقي هال في معالجته لمشكلات المدينة بتيار فكري ليس بالأصل من أهله. لكنه إذ يأتي من عالمين (السيمياء وعلم الحيوان) بعيدين عن عالم المختصين بأمور التنظيم المدني، فهو يُغني مساهمات المجددين في هذا المضمار أيّما إغناء. في التعقيب الذي كتبته فرانسواز شوي[9] على دراسة هال، تشير الباحثة الى ان مساهمة هال تندرج ضمن تيار يشكل قطعاً مع المبادىء المعمارية التي سادت طويلاً، وأن هذا التيار «يندرج ضمن تركيبة معرفية جديدة» (219). ما معالم هذا القطع، وهذه التركيبة؟

عندما ننظر الى مدننا ونرى أنها تغلّب في «نموّها» مبادىء الوظيفة البحتة التي يلعبها السكن من حيث كونه

8 ـ لا يخفي المسيحيون اللبنانيون اتهامهم الضمني (الذي يخرج أحياناً الى العلن) للمسلمين بالوساخة إذ يرمون قاذوراتهم في الشوارع ويعطون الأولوية لأمور شتى على جمع النفايات من أحيائهم وأزقتهم. هذا في الوقت الذي يتهم المسلمون المسيحيين بالوساخة نفسها لأنهم لا يتطهرون ولا يضيرهم أن يظل إستهم «مجلغماً» بالغائط إذ يمرحونه بالورق ولا «يتشطفون» بالماء.. من ذا الذي يقنع كلا الفريقين أن كلاً منهما لا يقل وساخة او نظافة عن الآخر، وان الاتهام هنا ليس إلا من باب الحكم المسبق. لكن هذا الحكم المسبق راسخ الأصول في عناصر ثقافية، ليس أقلها الفرق بين مفهومي النظافة والطهارة. (انظر في مكان آخر من هذا العدد مقالة د. أحمد خواجه، «مناهج الغرب الفكرية والتراث»، حيث نجد الخلط نفسه بين النظافة (كسلوك مدني) والطهارة (كسلوك ديني).

9 ـ باحثة، لها كتاب «السيمياء والتنظيم المدني»، كتبت تعقيباً على الطبعة الفرنسية من كتاب هال الذي نحن بصدده، ص239-244

— Francoise Choay, «Semiologie et Urbanisme», Paris, 1967.

«مـأوى» أو حيّزاً يقي الانسـان شرّ العـراء والبـرد والحـر، ويراعي الى حدّ مـا عناصر استـطيقية سـطحية، من نـوع منظر البناء الخارجي او هندستـه، بالاضـافة الى الإعـراب عن «معرفة بـأصول»، هي أصـول الهندسـة المعماريـة كما تبلورت في القرن الفائت، نكـوّن فكرة عن هـذا التعامـل مع المدينة الذي يشكـل التيار المـذكور قـطعاً معـه. يتدفق سكان الأرياف (لأسباب لا مجال لبحثهـا) على الحـواضر، وتنشأ الحاجة الى إيوائهم فينبري القيمون الى شقـع الأبنية طولاً وعرضاً وارتفاعـاً، دونما حسـاب يُذكـر للعناصر التي تخرج عن مقتضيات الإيواء. والعناصر المـذكورة لا تقتصر فقط عـلى المجالات التي يفقـد الانسـان بـدونها جـزءاً من حيـويته، كـالحدائق العـامـة والفضـاء الـرحب وإمكـانيـة التحـرك والتواصـل، بـل تمتـد ايضـاً الى عنـاصر ثقـافيـة رافقت تكـوّن الجمـاعـات البشـريـة وتجـذّرت فيهـا قبـل تـدفقهـا إلى المـدن، ومـا زالت تعتبـر جـزءاً من كيـانها. وضـرورة الحفـاظ عـلى العنـاصر المـذكـورة لا تنجم عن أسباب «إنسانية» عامـة، بقدر مـا تمليها ضـرورات عملية تتعلق بطبيعة التمدن نفسه. فـالجيوب العـرقية أو الثقـافية التي تحفـل بهـا المـدن تلعب أدواراً في عمليـة الـتحضر بأسرهـا ليس أقلّها، كـما يقول المؤلف: «إنها تشكـل بؤرة استقبـال لطائفـة من البشر [الوافـدون الجدد الى المـدينـة] **تمهـد للجيـل القـادم عمليـة تكيّفـه مـع الحيـاة المـدنيـة وشـروطها**» (205). لكن المشكلة التي تـطرحها مثـل هذه الجيـوب تنشأ عن أن مـواضعها وأمـاكن تواجـدها تتصف بـأبعاد محـدودة. فإذا تـزايد عـدد السكان الـوافدين اليهـا بمعدل يتخطى إمكانات تحـويل الـوافدين الـريفيين الجـدد الى مـدنيـين (بحيث يكـون بـوسعهم عنـدئـذ أن يغـادروا الجيب وينخرطوا في الحيـاة المدنيـة العامـة وفقاً لشـروطها) لا يكـون ثمّة، كـما يقول المؤلف، إلا حـلّان: إما تـوسيع الجيب نفسـه (من حيث المسـاحـة) وإمـا ازدحـام السكن وتـراكم السكـان بعضهم فـوق بعض. فـإذا لم يكن من الممكن لا تـوسيع رقعـة الجيب، ولا المحافـظة على كثـافة سكـانية معقـولة، فـإن طائفـة من التصرّفـات والسلوكات تنشأ عندئذ وتطغى على التدابـير المدنيـة المرعيّـة وقد تؤدي الى انهيارها ومن ثم الى تهـديد المـدينة بـالخطر. إن المثـال الـذي يعالجـه المؤلف في كتابـه مـأخـوذ من وضـع السـود والبورتوريكيـين في بعض المدن الأمـريكية. حسب تقـرير وضـع عـام 1964، بلغ عـدد السـود المكـدّسـين في حي هـارلم الشهـير 230 ألفـاً، وذلـك عـلى رقعـة لا تتجـاوز مسـاحتهـا 9 كيلومتـرات مـربعـة[10]. الى أي حـد يمكن التسـاهل في تكـديس البشر دون أن يؤدي ذلك الى انهيـار المـدينة؟ سؤال يبـدو ان لا جـواب عنـه. ففضـلاً عن أن حدّ التكديس يختلف بـاختلاف الثقـافات، لم يحصـل حتى الآن ان قيس هذا الحد بالنسبة لثقـافات بعينهـا، لذا يهتم المؤلف بالتجارب التي أجريت على تكديس الحيوان. فـإذا أردنا أن نزيد كثافـة جماعـة من الفئران، وأن نحـافظ على صحتهـا في الـوقت نفسـه، يكفي أن نضعهـا في علب أو جوارير منفصلة بحيث لا يرى بعضها بعضـاً، وأن ننظف مـأواها ونقـدم لها مـا يكفي من الطعـام. لكن المؤسف في هـذا «الحل» أن هـذه الفئران سـرعـان مـا تصـاب بـالبله والحماقة. فبازدياد كثـافتها عـلى هذا النحـو، يقلّ فهمهـا ويضيق أفق مـداركها. فيكـون الثمن الـذي نـدفعـه إزاء إيوائها بـاهظاً. فـإذا كنا لا نـرغب في دفع الثمن المـذكور فإن علينا ان نـواجه السؤال من جـديد: «إلى أي مسـتوى من مسـتويـات تعليب البشر يمكننـا ان ننحـدر، دون ان نعـرّض الجمـاعـة المعلّبـة [ومن ثم المـدينـة] للخـطر؟» (206).

سؤال، والحق يقـال، تعيس. لكنـه، عـلى مـا يبـدو، المأزق الذي تدفعنا اليـه نظرة بعينهـا سادت طـويلاً، ومـا زالت، في مجـال التعامـل مع التنـظيم المدني. أمـا الخـروج من هـذا المأزق «فيتـطلّب، بالاضـافة الى الاختصـاصيين التقليـديين (خبـراء مـدنيـون، مهنـدسـون معمـاريـون،

10 ـ لا تتجاوز مساحة الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت المساحة المذكورة. لكن عدد سكانها كان يتجاوز عام 1975 عدد سكان حي هارلم المذكور.

مهندسون من جميع الاختصاصات، إداريون تقنيون في شؤون النقل والسير، معلمون، قضاة، اختصاصيون بالاقتصاد السياسي) جهود اختصاصيين من نوع جديد. فعلماء النفس، والأنّاسون، والنيّاسون، قلّما يشاركون في الهيئات المشرفة على التنظيم المدني كأعضاء دائمين» (207).

يتناول المؤلف في كتابه بعض الأمثلة التطبيقية عن معالجات للمشكلة المطروحة. فيتحدث عن المساكن التي بنيت للطبقات ذات الدخل المنخفض من قبل الإدارات الرسمية (القطاع العام، إذا شئنا) في مدينة شيكاغو. فيعتبر أن المسؤولين تجاهلوا المشكلة وميّعوها عوضاً عن حلّها. إن السكان ذوي الدخل المنخفض الذين يتدفقون على شيكاغو هم في أغلبيتهم من السود، ويأتون من مناطق ريفية او من مدن صغيرة في الجنوب، هؤلاء الناس ليس لديهم، في معظمهم، أية تقاليد مدنية أو أية تجربة عن الحياة في المدن الكبيرة. كما أن الكثيرين منهم (شأن البورتوريكيين أو قبائل الأبالاش) لا تتلاءم شروطهم الثقافية مع الحياة في مسكن. لا شك أن البنايات العالية ذات الطراز الواحد أقلّ مدعاة لضيق النفس والصدر من أكواخ الصفيح التي حلت محلها. لكنها من ناحية أخرى أكثر مدعاة لإرباك نمط الحياة بكاملها عندما تطرح مسألة العيش فيها. «كان السود واضحين تماماً في إدانتهم وعدم رضاهم عن الأبنية الشاهقة ذات الشقق المتعددة. إنها تمثل في نظرهم هيمنة الانسان الأبيض» (208)، وهم يسخرون منها، ويبولون في مصاعدها (ربما تعبيراً عن احتجاج) التي كثيراً ما تتعطل، ويتساءلون كيف يتسنى لأم أن ترعى أطفالها الذين يلعبون في باحة البناية بينما هي قابعة فوق في الطابق العاشر مثلاً، أو كيف يمكن الحؤول دون تعرّض الأطفال الصغار للضرب من قبل الكبار أثناء هذا اللعب. ، الخ . . .

ويتحدث المؤلف عن تجربة مدنية أخرى قوامها التخطيط لإلغاء أكواخ الصفيح من ضواحي مدينة بوسطن. عملية كهذه كانت جزءاً من دراسات قام بها علماء نفس وعلماء اجتماع يسترشد المؤلف في كتابه بآرائهم. لم ينتبه القيّمون على عملية التخطيط المذكورة الى أن الأحياء التي كانت تسكنها الطبقة العاملة في ضواحي المدينة (منطقة الوست ـ أند) كانت مختلفة كل الاختلاف عن الأحياء التي تسكنها الطبقة الوسطى. كان سكان «الوست ـ أند» يعيشون بصلة مستمرة وحميمية بعضهم مع بعض. فساحات البيوت والدكاكين والمقاهي والكنائس، بل حتى الشوارع والأحياء كانت تشكل جزءاً من مجال حيوي عام يشارك فيه الجميع. بحيث انها تلعب دوراً رئيسياً في الحياة المجتمعية المشتركة. عندما قام الباحث هارتمان[11] بحساب الكثافة السكانية في تلك المنطقة، وجد أن السكان كانوا يملكون في الواقع مجالاً أرفع وأرقى بمرات عديدة من ذاك الذي تعتمده الطبقة الوسطى والذي يأخذ بالاعتبار أبعاد حجرة السكن وحدها. كما اعتبر باحث آخر[12]، أن تلك «القرية ـ المدينة» (على حد تعبيره) كانت تضطلع في الواقع بدور تحويل القرويين الوافدين الى المدينة الى مدنيين، وهذه عملية تستغرق في رأيه ثلاثة أجيال أو تزيد.

فعندما يتّضح أن تجديد شباب الحي أو المنطقة السكنية قد أصبح ضرورياً، يبدو من الأفضل أن نعمد الى الترميم والتجديد لا الى التدمير الكامل بغية البناء من جديد. إذ إن هذا التدمير لا يطول الأبنية فقط وإنما البنى المجتمعية كذلك. والحق ان إعادة البناء المدنية عندما أكرهت بعض الايطاليين من سكان المنطقة

11 ـ شستر هارتمان: «القيم المجتمعية واتجاهات الاسكان»، 1963

— Hartman, Chester ; "Social Values and housing orientations», Journal of Social issues, Janv. 1963

12 ـ هربارت غانز: «القرية ـ المدينة»، 1960

— Gans. Herbert: àThe Urban Villagers», Cambridge, 1960.

المذكورة على أن ينتقلوا الى مجالات أكثر حداثة أصيب قسم كبير منهم بالأسى النفسي وفقدت الحياة بالنسبة لهم قسماً من رونقها. لقد تطاير عالمهم السابق شظايا. دون قصد الاساءة إليهم، بل رغم كل النوايا الحسنة المبيّتة. بهذا الصدد يقول باحث ثالث[13]: «إن منزل المرء ليس كناية عن مأوى أو عن شقة سكن وحسب، بل كناية عن أرض، عن مجال، عاش فيه المرء بعضاً من تجاربه التي تحتلّ حيّزاً أنيساً من وجوده». ويبدو ان ابن الرومي كان خبيراً بمثل هذه الإلفة لدى حياته المدنية في بغداد، حتى أنه يجعلها في أساس «الشعور الوطني» الذي يكثر الحديث عنه:

وحبّب أوطان الشباب إليهمُ
مآرب قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذُكرت أوطانهم ذكّرتهمُ
عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا[14]

إن تعلّق سكان منطقة «الوست ـ أند» بقريتهم ـ المدينة يقوم بشكل خاص، كما يقول هال، «على صعيدها ككل. فقد كان الشارع بالنسبة لهم أليفاً ودوداً. ورغم أننا لا نملك معلومات موثوقة تتعلق بالصعيد، صعيد المجالات المختصة بالانسان، فإن هذا الصعيد يشكل بنظري وجهاً من أوجه الحاجات البشرية الأساسية التي ينبغي أن يؤول بنا الأمر الى فهمه حق الفهم لأنه يتدخل تدخلاً مباشراً في تحديد معايير الكثافة السكانية» (210).

* * *

ويبدو أن العلل الناجمة عن الازدحام السكني أقرب الى العلل الخبيثة: «فكما أن السرطان الناجم عن التبغ لا تظهر مفاعيله إلا عند اكتماله، كذلك فإن المفاعيل التي تتراكم بناء على ازدحام السكن لا تظهر بشكل عام إلا عندما يكون الداء قد استفحل» (210). «لقد أصبحنا متعودين على الجرائم، على الولادات غير الشرعية، على التدهور في المستوى التربوي، على ارتباك النمو الجسدي..»، وكأن المؤلف يتحدث، عام 1966، عن مدن أقرب الينا اليوم من حبل الوريد... ويبدو أيضاً ان الأمراض والجرائم تتصل اتصالاً وثيقاً بازدحام السكن والسكان. ففي دراسة يعتبرها المؤلف فريدة من نوعها، قام الباحثان شومبار دي لوي[15] باعتماد طرائق النفسانيات والاجتماعيات لدراسة مفاعيل الازدحام السكني. بدأ بقياس حدّ الازدحام عن طريق رصد عدد السكان الذين يقيمون في وحدة سكنية واحدة، ثم رصدا عدد الأمتار المربعة المتوفرة للشخص الواحد والمسكن الواحد. فتمكنا من الوصول الى النتيجة التعيسة التالية: «فما أن يصبح المجال المتوفر للشخص الواحد أدنى من 8 الى 10 أمتار مربعة حتى يصبح عدد الحالات المرضية، من جسدية ومجتمعية، مضاعفاً» (211). (أما بعد الـ14م^2 للشخص الواحد فتظل المؤشرات المرضية، من النوعين المذكورين، قائمة وفي تصاعد، لكنها تصبح أقل حدّة). لكن المجال الذي يتراوح بين 10 و14م^2 لا يملك في رأي المؤلف هال «قيمة شاملة أو عالمية». إذ ان هذا الرقم لا يصح إلا على جزء

13 ـ مارك فريد، «الشرط المدني»، 1963

— Fried, Marc:«The Urban Condition», New York, Basic Books, 1963.

14 ـ وربما من اللازم ان نشير الى ان بيت قصيد ابن الرومي هو المسكن بالضبط:

ولي منزلٌ آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة ... كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
فقد ألِفته النفس حتى كأنّه ... لها جسد إن غاب غودرتْ هالكا

15 ـ ب. و م. شوبار دي لوي، «العائلة والسكن» باريس، 1959

— P. et M. Chombard de Lauwe.«Famille et Habitation», Paris, CNRS, 1959

صغير من المجتمع الفرنسي (حيث أجريت الدراسة). إذ ان مشكلة تحديد عتبة التراكم السكاني عند مختلف الفئات العرقيّة لا بد ان تُحيل الباحثين على المسألة التي عالجها المؤلف في أربعة فصول من كتابه وهي مسألة الفروق في استخدام مختلف الحواس، فطبيعة الانخراط الحسيّ في العلاقات البشرية، وطريقة التعامل مع الزمن، تتيحان لنا ان نعيّن لدى شعوب مختلفة، لا عتبة الازدحام السكني فقط، بل كذلك الوسائل الآيلة الى مكافحة هذا الداء. فالشعوب التي تنبني لديها العلاقات البشرية على تقارب الجوار والمسافة والمجال بحاجة الى كثافات سكنية أرفع من تلك التي تعتمد تباعداً في العناصر المذكورة.

لذا كان من المفيد أن نتوقف عند ما يعنيه المؤلف بـ«طبيعة الانخراط الحسي» و«طريقة التعامل مع الزمن». في فصل يعقده للمقارنة بين الثقافة الأمريكية وثقافتين مختلفتين عنها، اليابانية والعربية من حيث التعامل مع الحواس والمجال، يروي المؤلف تجربة خاصة مكنته من فهم أفضل لتصرفات وسلوكات عند العرب الذين يعيشون في أمريكا، والتي لم يكن يجد لها فهماً من قبل. لم يكن يفهم مثلاً كيف يتدافع الناس بالمناكب والمرافق في الأمكنة العامة من بلدان الشرق الأوسط، دون أن يشعر واحدهم بحرج يذكر، بينما يعتبر الأمريكي أو الأوروبي أن لمس طرف ثوبه من الآخر يستدعي اعتذاراً مفروغاً منه (وخاصة كيف يعتبر العرب ان سلوك الأمريكيين هذا منفّر ومُدان).

يروي المؤلف إذن أنه كان ينتظر صديقاً له في بهو فندق من فنادق واشنطن. وحتى يتمكن من رؤية هذا الصديق عند دخوله، ويكون مرئياً من قِبله، اختار مقعداً في زاوية مناسبة لهذه الغاية وبعيدة في الوقت نفسه عن حركة الداخلين الى البهو والخارجين منه. في مثل هذه الحال، يراعي الأمريكيون (والمؤلف منهم) قاعدة بديهية في رأيهم (أي أنهم يلتزمون بها دون التساؤل عن مبرراتها أو قيمتها) وهي ان الجالس في «مكان عام» يتمتع بحرمة خاصة قوامها تلك الدائرة البسيطة التي تحيط به والتي يجب احترامها وعدم اقتحامها. (علماً أن سعة هذه الدائرة تختلف باختلاف معطيات بعينها، ككثافة الناس في المكان العام، او عمر الجالس وجنسه..). فكل من يدخل الى نطاق هذه الدائرة **ويظل فيها** يعتبر بموجب العرف الأمريكي، «متطفلاً» وعليه بالتالي أن يبرر تطفّله او يلطفه بكلمات اعتذار.

كان المؤلف إذن ينتظر صديقه في البهو المذكور الذي كاد يصبح خالياً، عندما دخل أحد الغرباء، وتوجه نحو المقعد الذي يجلس فيه المؤلف، ثم جلس مباشرة الى جانبه، على مقربة شديدة منه بحيث كان كلٌّ من الرجلين يسمع صوت أنفاس الآخر. الى ذلك، يقول المؤلف، «كان حجم جسمه يملأ الجانب الأيسر من حقل رؤيتي. ولو ان البهو كان مزدحماً لكنت تفهمت سلوكه هذا. لكن اقترابه مني على هذا النحو، رغم سعة البهو وخلوّه، كان مدعاة للضيق والانزعاج. فتململت في مجلسي إعراباً عن استيائي. ولكن عوضاً عن أن يكون ردّ فعلي هذا محفزاً للرجل على الابتعاد كان المفعول عكسياً. إذ لم يكن منه إلا أن ازداد التصاقاً بي. عندئذ، ورغم ان نفسي قد حدثتني بإخلاء المكان له، قررت أن ألزم مكاني ولا أغادره. كنت أقول في سرّي: «فليذهب الى الجحيم! لماذا أكون انا الذي ينسحب؟ لقد جئت الى هنا قبله، ولن أدعه يطردني حتى ولو كان فظّاً غليظاً». وكان من حسن الحظ أن دخل البهو نفر من الناس، انضم الرجل إليهم وانصرفوا. وعرفت من كلامهم وحركاتهم أنهم عرب. الأمر الذي لم يكن يسعني ان أعرفه إذا كان الرجل وحده. فهو لم يتكلم وكان لباسه امريكياً».

لم يفهم المؤلف سلوك الرجل العربي إزاءه. لكنه ما لبث أن فهم، عندما روى الحادثة لصديق عربي له، إن المسألة متعلقة «ببُنيتين مجاليتين مختلفتين» (191). فالفكرة التي لديه حول حقه بدائرة شخصية، بحرمة شخصية، إذ يجلس في «مكان عام»، بدت لصديقه العربي مستهجنة ومستغربة. إذ «في نهاية الأمر، ألم يكن المكان مكاناً عاماً؟». لقد تبين له ان الانسان العربي لا يعتبر

ان هناك «حرمة» معينة لمن يحتل نقطة مخصوصة من مكان عام. وأن ذلك لا يخوّله بالتالي اي حق من الحقوق. فلا جسد الجالس، ولا المكان الذي يجلس فيه يُعتبران بمنأى عن الاحتكاك والاقتحام. هكذا يخلص المؤلف الى «أن فكرة التطفل في المكان العام لا وجود لها عند العربي. فما هو عام يكون عاماً بالفعل». وأن هذا الكشف أتاح له أن يفهم، بعد لأي، سلسلة بكاملها من التصرفات التي كانت تثير لديه مشاعر الدهشة او الانزعاج أو حتى الخوف. «إن العربي الذي «اقتحم» مجالي في بهو الفندق كان ولا شك قد اختار ذلك المكان للأسباب عينها التي دفعتني لاختياره. إذ كان المكان مناسباً لمراقبة المدخلين فضلاً عن باب المصعد. أما إمارات استيائي، فقد كانت باعثاً على تشجيعه لا على إثباط عزيمته: فقد ظن أنه أوشك ان يُحرجني فيخرجني ويُقصيني عن المكان» (194).

* * *

لا أعتقد أن المجال يتسع هنا لعرض ما يسجله المؤلف عن فهمه، مثلاً، لعلاقة العربي بجسده، او عن طبيعة تحديقه بمحدّثه أو عن معنى مشاركته للآخرين، فضلاً عن أن ثمة أموراً لا يستقيم الحديث في غياب ألفاظها ومفاهيمها إلا بصعوبة ليس هذا مجالها: إذ كيف يعبّر المرء مثلاً عما هو privé بلغتنا؟ لكنني أجد ميلاً شديداً لأن لا أختم الكلام قبل ان أقول شيئاً عن علاقة الألمان بالباب. وبالمناسبة «فخلافاً لما هي عليه ذات العربي [أو أناه]، فإن ذات الألماني سريعة العطب جداً، بحيث انه يعمل ما بوسعه لحماية «حيّزه الخاص»[16]» (165). ويروي المؤلف واقعة عن سلوك بعض الأسرى الألمان ممن وقعوا في أسر الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية، فيقول: «ما أن كان بوسع هؤلاء الأسرى ان يحصلوا على المواد اللازمة، حتى شرع كل منهم يُقيم حاجزاً بينه وبين جاره الأسير ليبني مجاله الخاص به»، علماً أن هذا المجال «لم يكن أوسع من جحر ثعلب» (166). لكننا نعود الى مسألة الباب. فالأبنية العامة والخاصة في المانيا تُزوَّد عادة ببابين. واحد وراء الآخر، وبينهما فسحة بسيطة، وذلك لعزل الصوت. غير أن المسألة، كما يرى المؤلف، لا تقتصر على آذان حساسة تجاه الضجيج. فالباب يتخذ أهمية كبيرة لدى الألمان، بحيث ان الذين يأتون منهم الى أمريكا «يجدون أبوابنا خفيفة وهشة». الى ذلك، وهذا أهم، لا يستوي الباب المفتوح، لدى الألمان، مع الباب المغلق. بل لكل دلالة. إن الأمريكيين، إذ يعملون في مكاتبهم، يتركون أبواب المكاتب مفتوحة. بينما يحرص الألمان على إغلاقها. غير أن اغلاق الباب لا يعني عند الألمان أن واحدهم يبتغي مزيداً من الهدوء، أو أنه مستغرق في عمل بحيث لا يريد ان يُقطع عليه حبل أفكاره. لا. بل لمجرد ان ترك الباب مفتوحاً يُحدِث لدى الألماني تشويشاً في الذهن وارتباكاً في العمل. فإغلاق الباب يحفظ له تماسكه، وتماسك مجاله الذي هو هنا مكتبه، ويطمئنه الى ان ذاته بمعزل عن التطفل والفضول. عندما يتحدث الألماني عن بيوت الأمريكيين لا ينفك يتشكى من الضجيج الذي يتسرب عبر الجدران ومن شقوق الأبواب. حتى ان بعضهم يرى أن أبواب الأمريكيين تلخص نمط معيشتهم: فهي رقيقة، رخيصة الثمن، نادراً ما تكون مُحكمة التركيب والترتيب. وأين منها الباب الألماني الصلب الذي يملأ سمعك صوت ارتطامه عند اصطفاقه! وأين الوقع المهيب لصوت قفله إذ تدير مفتاحك فيه، من هذه الثرثرة التي لا تكاد تبين في أقفال الأبواب الأمريكية.!

ويسجل المؤلف ان ترك الباب مفتوحاً، حسب العرف الأمريكي، كثيراً ما أثار علاقات سيئة في الشركات المشتركة بين الألمان والأمريكيين، وبين مديري هذه الشركات من الثقافتين. حتى ان شركة بعثت تستشيره في مسألة عويصة: «كيف نقنع الألمان بترك أبواب مكاتبهم مفتوحة؟» (168). والحق ان الأبواب المفتوحة كانت

16 ـ مقابل sphére privée رغم عدم الاقتناع بصحة الترجمة.

تسبب ضيقاً شديداً للألمان العاملين في الشركة، فتوترهم وتؤثر في إنتاجيتهم. في حين ان الأبواب المغلقة كانت توحي للأمريكيين بأن ثمة مؤامرة يحيكها الألمان وراء أبوابهم يبتغون إقصاء أبناء العم سام عنها..

هذا ولم يعد من المجدي، إزاء هذه الفروقات الثقافية، ان يكون تعليق واحدنا: ولله في خلقه شؤون. إلا إذا كان يصرّ على قراءة الجاحظ في حديثه عن «فضل بني هاشم على بني أمية» بذهنية المتحيّز لواحد من الفريقين...

* * *

كتب ادوارد هال كتابه هذا منذ عقدين. كتبه استكمالاً لكتابه الآخر «اللغة الصامتة»، وتمهيداً لـ«ما وراء الثقافة» و«رقصة الحياة»، ولا أدري ماذا أيضاً. منذ ذينك العقدين اللذين مضيا على عمر هذا الكتاب استفاد الغربيون جداً من كتابات مفكريهم وناقديهم. وأظنهم أقلعوا عن كثير من السيئات التي ما فتيء ينتقدها هؤلاء المفكرون من زمان. لم تعد عاهات بوسطن وشيكاغو كما كانت عليه عام 1966. لم يعد النقد الذي لمسنا شيئاً منه في هذا الكتاب يصح إلا على مراكز المدن الكبيرة التي اتعظت منذ عقدين وأكثر من تجربتها، وأدخلت تغييرات كثيرة على بنى مدنها. علة الغرب، اذ يجدد نفسه ويستفيد من تجاربه، قد لا تكون مستعصية والحال هذه. لكن علّتنا، من حيث علاقتنا به قد تكون هي المستعصية. ففي الحين الذي كان الغربيون يقلعون فيه عن عاداتهم السيئة، كنا نحن قد بدأنا، كالحزين إذ وقع في السل المعلوم، نتبناها بحذافير سوئها. وأعني بنحن بلدان ما يسمى بالعالم الثالث عامة، وبلداننا العربية خاصة. هدمنا بيوتنا التي كنا نبنيها بما يتلاءم مع بيئتنا وطقسنا وعاداتنا، من حجر الطوب والتراب والصخر وتبنّينا بدعة الباطون المسلح، فأصبحت بيوتنا لا تُسكن من فرط الحر في الصيف والبرد في الشتاء.

وعندما كان الغرب يعيد النظر في شقع البنايات الشاهقة ويقلع عن مغباتها كنا في أوج اندفاعنا نحو إفساد مدننا وتخريبها ونزع طابعها الشرقي (الذي لم يعد يصلح إلا للتغني) بأن تبارينا في علو البنايات وفي هدم الأحياء القديمة. أصبحت شوارعنا خالية من شجرة. وبينما كانت مدينة كبيروت تعد في أيام الانتداب (لعنه الله) ثلاثة وأربعين مرحاضاً عاماً، تقلّص هذا العدد الى احد عشرة في اوائل السبعينات ثم انعدم في اوائل الثمانينات حتى صارالعابر في حيرة من أمر حاجته في غياب أي مرحاض عام، ملأنا المدينة بالسيارات قبل أن نشق شوارع لها. حولناها الى مرائب وكاراجات. ولم نعد نحسن شيئاً إلا شتم الغربيين والطعن في أعراضهم بوصفهم من اللئام. منذ عقد ونيّف كتب أحد الباحثين العرب يقول: «وفي حين أخذ الغرب يعي نواقص طروحاته وأخطاءها، كان الفكر العربي ينفخ الحياة في هذه الطروحات إياها، ويؤمن لها ديمومة صاخبة. بحيث نستطيع القول إن القطيعة المعرفية بين هذين العالمين الثقافيين المتشابهين لم تكن يوماً أعمق مما هي عليه اليوم»[17]. هكذا دأبنا. نتشبث بإنجازات الغرب بعد أن تكون قد أصبحت من نفاياته. في صيدليات بيروت يجد المرء، على ما تقول الاحصائيات، أحد عشر ألف صنف من الأدوية، سبعة آلاف منها ممنوعة في بلدان المنشأ بوصفها من السموم. والشركة العقارية التي حققت أكبر رقم أرباح عام 1981، شركة امريكية تبني بيوتاً من الحجر الترابي، حجر الطوب نفسه الذي تخلينا عنه بنزق واستبدلناه بحجر الباطون. حتى بندقية الميم 16 التي نتباهى بقتل بعضنا بها ممنوعة في صفوف الجيش الأمريكي بوصفها سلاحا صار يشكل بعض الخطر على صاحبه. ونتمادى في شتم الغربيين ورشقهم «بالحروف السمينة».

لكن هذا كله ليس سوى ذر للرماد في العيون الرمداء أصلاً. وهل يغبّر طحان على فحّام؟ فنحن نعلم قبل

17 ـ محمد أركون، «مقالات حول الفكر الاسلامي» (بالفرنسية)، 1973، ص 307-308.

— M. Arakoun, «Essais sur la pensee islamique», Ed. Maisonneuve et Larose, 1973.

غيرنا ان العرب كانوا يتخذون إلهاً من تمر فإذا جاعوا أكلوه، لكنهم سرعان ما يعودون لعبادته. ورغم اعتدادهم بدينهم الاسلامي وتشبثهم به، فالكل يعلم ان ليس ثمة أمة تسبّ الدين أكثر منهم، رغم انهم بدينهم يتماهون وعنه ينافحون.

لم تعد تنطلي لعبة شتم الغرب على أحد، ما دام يشهد كل ذي عينين أننا نتشبث بفتات حضارته ونقتدي بكل سيئاته، حتى في حال إقلاعه عنها.

إذا كانت البشرية في المرحلة الحاضرة من عمرها تولي للغرب شيئاً من التقدير، فلأنها من فرط حاجتها للرجال قد سمّت الديك أبا علي. غير أن هناك من ينسى ان الحاجة ما زالت للرجال، وأن أبا علي الديك لا يعدو كونه طيراً، وإن يكن يصيح في الأوقات المناسبة منبهاً من لا يزال ينتبه الى أن هناك زمناً يدور وعالماً يتغير.